

الحدائفة المتواصلة في الوطن العربي

الأب جون دنوهيو اليسوعي^٥

سأتناول موضوع العلاقة القائمة بين التقليد والحدائفة في مضمار «الثقافة والمجتمع»، من الناحية السياسية بوجه خاص. وهذا الموضوع، في الواقع، يماثل الإشكالية التي تعرّضنا لها عندما بدأنا بحوثنا في «مركز الدراسات للعالم العربي المعاصر» منذ خمسة وعشرين عامًا، وكانت بعنوان «الثقافة العربية والتغيير». وقد قامت دراساتنا على مجموعة مقالات ظهرت في صحفٍ ونشراتٍ ومجلاتٍ دوريةٍ عربيةٍ، قسمناها فئات ثلاث: شعبية ودينية وفكرية.

ولو أردنا أن نقدّم الموضوع المطروح أعلاه في إطار الثقافة والتغيير، تبعًا للصيغة التقليدية المطروحة منذ أكثر من قرن، لوجدنا أنه كان على العرب اختيار واحدٍ من ثلاثة طرق:

١- إما أن يتبعوا نموذج الحدائفة الغربي بدون تحفظ.
٢- وأما أن يحافظوا على الأوضاع كما كانت عليه، رافضين مادّية الغرب.

٣- وأما أن يتخبوا عناصر من الحدائفة يمكن أن تتلاءم وثقافتنا. وبطبيعة الحال، نجد أنّ غالبية الكتاب الذين عالجوا هذه الإشكالية هم من أنصار الطريق الثالث.

أما قلبي إنّ «الصيغة تقليدية»، فمردّه إلى أنّ الأفكار المعاصرة هذه

(٥) مدير «مركز الدراسات للعالم العربي المعاصر»، جامعة القديس يوسف، بيروت.

قد حلص إليها الشباب العثماني في القرن المنصرم. ومثال على حائيتها ما جاء في افتتاحية أسبوعية اللواء الإسلامي بتاريخ ٢٧ آب/ أغسطس ١٩٩٨، بعنوان: «القرن الحادي والعشرون هو قرن العسكرة للحضارة الإسلامية»:

«أكد فضيلة الدكتور نصر فريد واصل مفتي الجمهورية في حديثه لـ اللواء الإسلامي أنّ التحديثات التي تواجه الأمة الإسلامية ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين كثيرة وثقيلة، وأتينا تحتاج من المسلمين اليقظة الكاملة والأخذ بمستجدات العصر واللاحق بركب التكنولوجيا وخاصة أنّ القرآن دين العقل وإيقاظ الهمم». وأضاف قائلاً: «إنّ هناك دولاً إسلامية بدأت تحقّق إنجازات في هذا السبيل بما يؤكّد أنّ المسلمين في القرن الحادي والعشرين سوف ينافسون الدول المتقدمة في مجالات التقدّم الحضاري».

أما في ما يختصّ بالمقاربات الفكرية والشعبية والدينية، فالخطاب الفكري، إبان الأعوام ١٩٤٥-١٩٥٠، كان مختلفاً عن الديني. وفي الأعوام ١٩٥٠-١٩٦٠، دخلت الأيديولوجية العربية الاشتراكية الخطاب الفكري وانتجت عناصره وعناصر الخطاب الديني على السواء. غير أننا نجد، في الأعوام ١٩٨٠-١٩٩٠، أنّ الخطاب الفكري قد فصل عن الديني من دون أن يختلفا. لذا يصعب علينا أحياناً أن نصنّف بعض الخطب. فالخطاب الديني يلازم الخطاب الليبرالي؛ والإسلام يحتلّ مكاناً بارزاً في الخطب جميعاً^(١). ولكن أترانا إزاء حالة رفض للحدثة وعودة إلى التقليد؟ لا أظنّ ذلك!

لقد تنصّيت قاعدة المعطيات التي جمعناها من الصحافة منذ العام ١٩٩٠ في شأن الإحالات على الحدثة. فوجدت أنّ تلك الإحالات متواترة وتشمل مختلف الميادين. فهناك دعوات إلى تحديث كلّ شيء:

(١) المؤتمر القومي العربي الثالث في بيروت، الحياة، ٢٩/٤/٩٢، ص ١٥.

نظام الفتراتب والجيش والمؤسسات التربوية وحتى أساليب الوعظ. وهناك من يتكلم أيضا على المحدثين التقليديين. على أن ذلك يقودنا إلى أن نطرح السؤال التالي: ما هو معنى الحدائة الحقيقي؟ ويمكننا أن نطرح أيضا سؤالين آخرين: أترانا نعيش، هنا في الشرق الأوسط، زمن ما بعد الحدائة؟ وهل يسأل الخميني والجماعات الإسلامية انقطاعا عن الحدائة وعودة إلى الإسلام؟

كتب أكبر أحمد ما تعرييه: «إن ما بعد الحدائة، في المجتمع الإسلامي، يعني تأكيدا للهوية القومية أو الإسلامية إزاء هوية غربية مستوردة أو غريبة. إنه رفض للحدائة وبروز قيادة شابة ساخطة وبدون ملامح. كما أنه انقصاص ثقافي، وشعور بدخول مدة تاريخية غامضة. وهو، قبل كل شيء، وعي عديم القوة ونظرة عدائية إلى وسائل الإعلام الغربية القوية والمستقرة»^(٢).

لا أظن شخصا أن الحدائة قد رُفضت. فبناك رفض للقيادة المحلية والياسة الخارجية والأيدولوجية ووسائل الإعلام. ذلك أن الشعارات القديمة قد استبدلت بأخرى حديثة وحسب. هناك إذا حالة ضياع. فما من شيء تمّ تبعا للوعود التي قُطعت. ولكن، على الرغم من ذلك كله، تُتابع الحدائة تقدّمها.

أما في الأوساط الياسية العربية، فليست الحدائة التي رُفضت، بل تطيح العلاقات بدولة إسرائيل. ففي نهاية هذا القرن، نجد أن جميع التبيدات صادرة عن إسرائيل وأن الأخطاء ملقاة على عاتقها. ومثال على التشدّد تجاه الانفتاح على إسرائيل، هو طرد الشاعر أدونيس من اتحاد الكتاب العرب في سورية لأنه شارك في اجتماع مع الإسرائيليين. وحائثا، يسمى بعضهم لرفع دعوى على لطفي الخولي ومجموعة كوينهاغن لأنهم حاولوا التوصل إلى سلام عادل.

Akbar S. Ahmed, *Postmodernism and Islam: Predicament and Promise*, (٢) Rutledge, London/NY, 1992, p. 32.

رسم فزاد عجمي، في كتابه الأخير^(٣)، صعودًا وهبوطًا لدى جيلين من العرب المثقفين المنفتحين والتقدميين. جميع أولئك كانوا ملتزمين في مشاريع الوحدة العربية. أما الآن فهم في حالة ضياع ونشوش. فبعضهم يعيش في العنق وبعضهم انتحر وبعضهم الآخر يبرز بعملية التطبيع مع إسرائيل.

كتب عجمي ما تعريه:

هنالك عالم كامل أفلت من بين أصابع جيلين من العرب توفلا إليه في الخمينات والستينات. وثقة مدينة كانت في نظرهما بمثابة بيتيما الثقافي الجماعي، هي بيروت. ضاعت منيما. والثقافة السياسية ذات انطباع القرمي العربي التي غذتنيما ووصلت إلييما واثقة بنفسيا وقبلاها كاملة ويدون أن يتفحصاها، تلك الثقافة سارت بيما في طريق مسدود. وتحولت أداة طغيان وغطاء له ولعبة بيد الحكام المستبدين. فما من سنيمة أجزان تُعيد هذين الجيلين إلى حقائق عالميما. لذا قد تُوقر الحملة على ماضي السلام الجديد فرقة يتبزهها رجال العروبة التقليدية وناؤه لكي يسترجعوا أرضهم الضائعة^(٤).

الأشخاص الفاعلون يتغيرون، والأيديولوجيات تتغير هي أيضًا، ومثلها الشعارات. ولكن التطور لا يلبث أن يستمر بعد كل انقطاع يصيه.

(نقله إلى العربية)
أ. صلاح أبو جوده)

Fu'ad Ajami, *The Dream Palace of the Arabs: A Generation's Odyssey*, Pantheon, (٣)
NY, 1998, p. 283.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٨٣.